اجتهادات
علم للبشر أم عليهم؟

عندما بدأ العلم يسبرُ أغوار الحياة والطبيعة، بدا أن البشر موعودون أخيرًا بتقدمٍ يفوقُ ما فكر فيه أو حلم به فلاسفةُ ومفكرون على مدى قرون. ولهذا ركز روَّاد التنوير فى القرن 18 على تحرير العقل لفتح الآفاق أمام تقدم العلم. وبرغم نجاحهم فى وضع الأساس لتحولٍ فكريٍ ومعرفى غير مسبوق، فقد وقعوا أسرى نظرة أحادية، إذ لم يروا فى العلم إلا خيره ونفعه. فقد اهتموا بالعلم من حيث هو نظرياتُ ومعارف فى مرحلةٍ كانت تطبيقاته فيها محدودة. فالنظرياتُ والمعارفُ العلمية تبقى نافعةً فى كل الأحوال. منجزاتُ العلم وتطبيقاتُه هى التى استُخدمت فيما أفاد، ويفيد، البشر، وفيما يُلحقُ بهم أفظع الأضرار, فى آن معًا.

ويصعب تحديد هل نفعُ العلم أكثر من ضرره أم العكس. ولهذا سيبقى الخلافُ على الوزن النسبى لكلٍ من النفع والضرر مستمرًا إلى أن يتيسر تطوير منهجية لقياسهما إذا أمكن تحقيق ذلك. وفى غياب مثل هذه المنهجية، لا يُسعفُنا التأملُ بأكثر من نتائج انطباعية تُقبلُ أو تُرفضُ حسب طريقة تفكير كل شخص ومرجعيته. ومن هذه النتائج مثلاً أن بعض أضرار العلم يتسمُ بالشمول بعكس بعض منافعه. ويرتبطُ هذا المثالُ بمقارنةٍ بين التطور المستمر فى الصناعات العسكرية، والتقدم فى العلوم الطبية. أضرارُ السلاح، الذى يتراكم ويُتسابقُ عليه، واسعة النطاق. وما أن يُستخدم فى معركةٍ أو أخرى حتى يتعرضُ كل الموجودين فى دائرتها لاحتمال القتل أو الإصابة. منافعُ المعرفة الطبية ليست كذلك، لأن الانتفاع بها يتفاوتُ من بلدٍ إلى آخر، ومن فئةٍ اجتماعية إلى غيرها. وهناك من يموتون كل يومٍ لأنهم لا يقدرون على تكلفة علاجٍ متوافرٍ لمن يقدر.

لم يتحقق، إذن، رهانُ عصر التنوير على أن العلم سيُحرِّر البشر من الطغيان والمرض والفقر. فإذا كان قد أسهم فى انعتاقهم من قيودٍ قديمة، فقد كبّلهم بأخرى جديدة اجتماعية وتكنولوجية لا يقلُ أثرُها الاستلابى عما سبقها عبر التاريخ، بل قد يزيدُ بمقدار ما يختلُ التوازنُ بين الروحى والمادى, وبين التقليدى والحديث, فى تكوين الكائن البشرى.